مجلة العلوم الإنسانية ـــــــ عدد 20- ديسمبر 2003، ص.ص. 113-126

النظام السياسي اليهودي من خلال نصوص التوراة[1]

ملخص

يناقش هذا المقال الأسس التي قامت عليها الدولة اليهودية في التوراة وهذا من خلال الحديث عن أركان الدولة المتمثلة في الشعب والإقليم والسلطة السيادية، حيث يحاول أن يبين أن هذه الأسس نظرت إليها التوراة نظرة خاصة ومميزة.

د/ موسى معيرش
قسم الفلسفة
جامعة منتورى
قسنطينة، الجزائر

إذا عدنا إلى فلاسفة السياسة وعلمائها نجدهم يشيرون إلى أن الدولة في أساسها تقوم على أسس يطلق عليها أركانا، بمعنى تلك الأسس التي لابد من توفرها في أي نظام حتى يستطيع أن يكوّن دولة قائمة بذاتها، وإذا أردنا أن نحدد هذه الأركان فإنه يمكن أن نقول أنه تتحدد في ثلاث كما يرى "يحي الجمل" في كتابه الأنظمة السياسية المعاصرة. ونقصد بذلك أولا السكان أو الشعب، ثانيا الإقليم أو الأرض وأخيرا السيادة، ورغم أن البعض يضيف إلى هذه الأركان ركنين لا يقلان أهمية عما سبق ذكره، ونقصد بذلك الاعتراف الدولي والحكومة[2]. كما يرى محمد علي محمد وعلي عبد المعطي محمد في كتابهما " السياسة بين النظرية والتطبيق".

وإذا تفحصنا النظام السياسي اليهودي كما يحدده الكتاب المقدس، فإننا نجد أنفسنا أمام المجتمع العبراني الذي يقوم أساسا على مثل هذه الأركان، لكن الجديد هنا يتمثل في المفهوم الخاص الذي يعطى لها، ومعنى هذا أن هناك تصورا خاصا لهذه الأركان وهذا ما يدفعنا إلى أن نطرح جملة من الأسئلة أهمها هل ناقشت اليهودية مسألة الإقليم

Résumé

Cet article traite des fondements sur lesquels l'état israélien s'est bâti selon la torah, et ceci à partir des structures de l'état, représentées à travers le peuple, le territoire et la souveraineté. Nous tenterons de montrer que la torah avait en fait une vision particulière sur ces fondements.

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2003.

وكيف نظرت إليه؟ وهل اعتبرته مجرد رقعة جغرافية تصلح لإقامة مجتمع أو بالأحرى دولة ؟

وما هي طبيعة الشعب الذي عملت على إنشائه وإسكانه هذه الأرض ؟ ثم ما حدود السلطة السيادية لتي كانت تتمتع بها الدولة اليهودية من خلال نصوص التوراة ؟

أولا: الشعب

إذا عدنا إلى " يحي الجمل " نجده يؤكد على أن قيام الدولة لا يمكن تصوره دون وجود جماعة من الناس، وإذا ما تصورنا أن الكرة الأرضية عبارة عن جرم من الأجرام، غير مأهولة بالسكان فإنه لا معنى لفكرة الدولة [3], وبهذا يكون وجود الشعب كما يرى محمد علي محمد وعلي عبد المعطي محمد "الذي يخضع للدولة ويتمتع بجنسيتها يمثل واقعة طبيعية وتلقائية، ومن ثم فهو يفرض بذاته وجود الدولة"[4].

أما "جاك ماريتان" في كتابه "الفرد والدولة" فيذهب إلى القول بأن "المفهوم الحديث عن الشعب أمرا أساسيا أن يكون له تاريخ طويل وأصول متفرعة من معان فريدة في تعددها تجمعت كلها في معنى واحد [5]، وإذا عدنا إلى الدولة الإسرائيلية فإننا نجدها في واقع الأمر لم تشذ على هذه القاعدة وتتكون من الشعب الإسرائيلي، فمن هو هذا الأخير وكيف تكوّن؟

يرى "إيريك شنيدر Erik Sneinadre" في كتابه " La loi de la pensée " أنه في أواخر سقوط الدولة السومرية، كانت توجد عائلة في حران السومارية تؤمن بالتعدد كغيرها من العائلات يتزعمها كبيرها تراح Tarah[6]، وكان لهذا الأخير ولد يسمى إبرام Abram[7] لا يتبع ديانة آبائه، ولا يؤمن بالأصنام[8]، وهاجر كما يقول "إبن العبري" إلى فلسطين[9] وأنجب فيها مجموعة من الأبناء منهمشش إسماعيل، وإسحاق [10], الأول أنجبه من جاريته المصرية هاجر، والثاني من زوجته سارة، وينسب العرب إلى الأول بينما اليهود ينسبون إلى الثاني, كما أننا نجد أبناء آخرين لإبراهيم من زوجات أخريات هم: يفشان, مدان, مديان, يشباق وشوحا"[11].

إلا أن الكثير من الباحثين يشكك في صحة النسب إلى إبراهيم الخليل، فإذا ما أخذنا "كلود موسي Claude Mousse في كتابه "L'histoire du monde antique" فإننا نجده يشكك حتى في وجود إبراهيم أصلا، لأنه يعتقد أن العبرانيين ابتدعوا هذه الشخصية، وأعطوها هذا الاسم العبراني، ليعطوا لأنفسهم هوية أسطورية[12].

وهناك خلاف آخر حول الفترة التي ظهر فيها إبراهيم فالرابي "أفي شفرون" "Rabbi Avi Shofran" في كتابه "whose Abraham ?" يقول أن إبراهيم ظهر قبل حوالي ألف وخمسمائة سنة 1500 من المسيحية، وقبل ألفي عام 2000 من ميلاد محمد[13].

في حين يذهب" إحسان حقي" إلى القول بأنه يعود إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد وهو بهذا يخالف الرأي السابق بما يقارب ثلاث مائة سنة[14].

وبغض النظر عن صحة الفترة الزمنية أو النسب فإن الكتاب المقدس يرجعه إلى أبعد من إبراهيم عندما يعيده إلى سام ابن نوح " وسام أبو كل بني عابر"[15], وهذا ما جعل اليهود ينتسبون إلى الشعوب السامية، أو بالأحرى إلى ما يعرف بالجنس السامي، ويرجع "محمد عزة دروزة" هذا المصطلح إلى المستشرق النمساوي "إشيهورن "عام 1781م والذي استخلصه من "سفر التكوين" الذي يذكر أن الأقوام التي عاشت في جزيرة العرب والأقطار المحيطة بها من ذرية "سام بن نوح"، إلا أن هذه التسمية ليس لها أساس أو سند تاريخي ومنطقي, فضلا على أن الكثير من شعوب المنطقة ينحدرون هم أيضا من سام بن نوح طبقا لنتائج هذا التصور[16].

وإذا عدنا إلى سفر التكوين نجده يؤكد أن الإسرائيليين ينحدرون من الابن الثاني لإسحاق، ونقصد بذلك انحدار هم من يعقوب الذي أصبح يعرف باسم إسرائيل، وأنجب أثني عشر ولدا هم أصل بني إسرائيل وعرفوا بالأسباط أي الأبناء منهم: روايين، شمعون، لاوي، يهوذا، زبولون، سياكر، دان، جـاد، أشوا, يوسف وبنـامين[17].

مرحلة التكوين

إلا أن تكوين الشعب الإسرائيلي لم يتم قبل الهجرة إلى مصر، وهو ما يؤكده كلود موس الذي يشير إلى أن الهجرة اليهودية نحو مصر كانت حوالي سنة 1700 ق.م، إلا أنها لم تشمل جميع العبرانيين إذ البعض منهم ظل في أرض كنعان، وإنما قام بذلك جماعة قليلة من الناس شملت يعقوب وأبناءه الإثنى عشر[18].

ويضيف إيريك شنيدر أن الهدف من هذه الهجرة يتمثل في الالتحاق بيوسف الذي أصبح نائبا لفرعون من جهة، وهروبا من المجاعة التي أصابت أرض فلسطين من جهة أخرى[19]، ويضيف الكتاب المقدس أن الإقامة كانت في أرض جاسان "ليسكنوا في أرض جاسان"[20].

ثم يعود الكتاب بل وفي الإصحاح نفسه إلى القول بأن الإسرائيليين سيطروا وتملكوا "أرض رعمسيس كما أمر فرعون"[21], فهل أرض جاسان هي نفسها أرض رعمسيس أم أن الآمر يعود إلى تناقض وقع فيه مدونو التوراة نتيجة لتعدد مصادر هذه الاخيرة وهو ما نرجحه هنا.

وقد عمل الوافدون الجدد في تربية المواشي، كما ينقل ذلك الكتاب المقدس في قوله "وأن تقولوا عبيدك أهل مواشي منذ صبانا إلى الآن وآباءنا جميعا لكي تسكنوا في أرض جاسان، لأن كل رعي غنم رجس للمصريين"[22].

وهكذا أصبح بعض الإسرائيليين مكلف بمواشي فرعون "فأجعلهم رؤساء مواشي

على التي لي"[23] ويضيف كلود موس بأنه علاوة على تربية المواشي فقد اشتغل الوافدون الجدد بمختلف أعمال السخرة كما عملت نسائهم قابلات[24].

وقد أصبح هذا الشعب القليل كثير العدد له دور في السياسة المصرية، إلا أن تغير الظروف السياسية حولهم إلى عبيد[25]، ويصف "الخروج" هذا الاستعباد بقوله" فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل"[26].

وقد أكد القرآن الكريم هذا الاستعباد بقوله : "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ "[27].

ورغم هذا فقد حافظ هؤلاء على هويتهم الخاصة كشعب مختلف عن المصريين ومرتبط ببعضه كما يذهب إلى ذلك كلود موس[28].

يهوه وملحمة التحرير

وإذا عدنا إلى النبي"موسى بن عمران" والذي يوصف عادة بكونه محررا وطنيا للشعب الإسرائيلي[29]، والذي رغم ترعرعه في قصر الأسرة الحاكمة إلا أنه لم ينس أصوله العبرانية[30].

وتذهب بعض المصادر التاريخية والدينية بأن موسى هذا ابن بالتبني لأميرة مصرية هي ابنة فرعون شخصيا[31], وهو ما يذهب إليه" سيجموند فرويد" في كتابه "موسى والتوحيد"، إذ يؤكد بأن موسى لم يكن إلا أميرا مصريا أعطى "اليهود ديانته ذاتها، فقد كانت ديانة إخناتون"[32]، ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المسألة، ولكن هذا لا يمنعنا من أن نقول أن فرويد استند إلى بعض "الأدلة اللغوية التي استقاها من علماء المصريات والتي على أساسها بنى نظريته الخاصة بالأصل المصري لموسى"[33].

وأما سفر الخروج فيشير إلى عبرانية موسى صراحة، وهذا ما نقرؤه في قوله: "ابنة فرعون لما وجدت الطفل موسى صاحب الأشهر الثلاثة في سفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته، ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي، فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد، فقالت لها ابنة فرعون اذهبي فذهبت الفتاة ودعت أم الولد"[34], وقد أكد القرآن الكريم عبرانية موسى بقوله: "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يا قوم إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ باتخاذكم الْعِجْلَ"[35].

وبغض النظر عن شخصية موسى فإن هذا الأخير لم يقم إلا بما كلفه به ربه، وهذا ما تؤكده التوراة عندما تقول على لسان الرب " فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر ... فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون لتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر"[36].

إلا أن موسى يتردد كثيرا في إجابة ربه، ولم يذهب لإخراج بني إسرائيل إلا بعد أن اطمئن إلى أن الله معه، مزودا بمعجزتين هما: العصا واليد، الأول تنقلب حية عظيمة، والثانية عندما يدخلها في جيبه تخرج بيضاء مثل الثلج، علاوة على مساعده أخيه هارون له.

ثم أن فرعون لم يسمح للإسرائيليين بالخروج مع موسى إلا بعد تدخل يهوه مرات عديدة مسلطا شتى أنواع العذاب على المصريين, والتي انتهت بإغراق فرعون وجيشه كما ورد ذلك في سفر الخروج في قوله" ومد موسى يده إلى البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم ... فدفع الرب المصريين في وسط البحر ... لم يبق منهم ولا واحد ... فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من المصريين"[37]. وقد أكد القرآن هذه الحادثة بقوله :"وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُم الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ"[38].

ويرى إريك شنيدر أن الخروج من مصر كان نحو صحراء سينا، حيث قادهم موسى بوحي من "يهوه" وأعطاهم النظام التشريعي، من قانون وتوراة والتي عملت على تخصيص الشعب للدين وسياسة الحياة الاجتماعية، والوجود الفردي وجعلت من إسرائيل شعبا مقدسا دون غيره من شعوب الأرض[39].

وبهذا يمكننا القول أن الدولة اليهودية تشمل الشعب الإسرائيلي المكون أساسا من مجتمع ينتمي أفراده إلى جماعة بشرية واحدة تنحدر من نسل الأسباط الإثنى عشر دون غيرهم من أبناء إبراهيم، بمعنى أن الشعب الإسرائيلي انحصر في أبناء يعقوب، كما يتضح لنا الدور الأساسي الذي لعبه "يهوه" في تكوين هذا الشعب ورعايته، بل أن المتتبع لأسفار العهد القديم يلاحظ أن الفترة التي تكون الغلبة فيها للإسرائيليين دولة كانوا أم جماعة بشرية يستعبدون كافة السكان الذين يقعون تحت سلطتهم ويطردونهم إلى خارج مجال سلطاتهم أو يقتلونهم.

وما يمكننا قوله أن هذه الجماعة البشرية كانت القبيلة أساسها، وهذا ما جعل كتابهم المقدس، كما يرى عصمت سيف الدولة، يعمد إلى إثبات وحدة الأصل العرقي، وهذا بتأكيده على الحرص الفائق ببيان الانتساب على أساس التطور البشري[40]. وقد أسس اليهود على هذا التصور أسطورة الشعب المختار المقدس المتميز عن الآخرين.

ثانيا: الأرض المقدسة

ويطلق عليه أيضا لفظ الإقليم والواقع أن الأرض مسألة أكثر من ضرورية لتكوين الدولة، ويرى عبد المعز نصر في كتابه " في النظريات والنظم السياسية " "إنه لا شك في أنه بدون إقليم ثابت لا يمكن أن تقوم دولة ... ولا يمكن أن يقال أن شعبا بدويا يكون دولة "[41]، إذ لابد لهذا العنصر البشري أن يكون مستقرا، ويذهب يحي الجمل إلى أن

الإقليم هو الركن الثاني من أركان الدولة ومقومات وجودها[42]. ولابد هنا من الإشارة إلى أن الإقليم يشمل الأرض والأنهار والبحيرات والفضاء الجوي[43]. فهل عرفت اليهودية ذلك ؟

يرى عبد المنعم الحفنى أن الأرض تعد أحد الأسس التي تقوم عليها اليهودية كعقيدة وكنظام حياة[44], ويمكن أن نعدها نحن الأساس الثاني الذي تقوم عليها اليهودية كدين والنظام السياسي والاجتماعي اليهودي بصورة أدق، نجد هذه الديانة تقوم على فكرة أرض الميعاد، والمقصود بذلك أن يهوه وعد الإسرائيليين بإعطائهم أرض فلسطين.

وإذا بحثنا في التراث الديني اليهودي بعامة وما ورد في الكتاب المقدس بخاصة فإننا نجد أنفسنا أمام أنواع مختلفة من الوعد، أقصد أننا لا نجد وعدا خالصا صريحا بهذه المسألة، وإنما نجد أن مسألة إعطاء فلسطين لليهود مرت بمراحل مختلفة أو على الأقل نجدها بصيغ مختلفة، وبغض النظر عن حقيقة هذا الوعد الذي يجعل شعبا يمتلك أرضا بمقتضى الحق الإلهي المقدس فإن المتتبع لهذه المسالة يطرح مجموعة من الأسئلة تحتاج إلى بعض التوضيح ولعل أهمها، لمن هذا الوعد؟ وهل لهذه الأرض حدود ؟ وهل هذا الوعد نهائي أم مشروط[45].

فإذا أردنا أن نجيب عن السؤال الأول ونقول أن أول إشارة لهذا العهد نجدها في أول "أسفار التوراة" ونقصد بذلك "سفر التكوين"، حيث نجد فيه إشارة صريحة بإعطاء أرض أو بالأحرى قطعة من الأرض لإبراهيم " وسار إبرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة، وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض، وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض, فبنى هناك مذبحا للرب الذي ظهر له، ثم تنقل من هناك إلى الجبل شرقي "بيت أيل" ونصب خيمته ... فبنى هناك مذبحا للرب ودعا باسم الرب، ثم ارتحل إبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب[46].

كما نجد إضافة إلى ما سبق تحديد هذه الأرض في قول الرب لإبرام "لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات"[47].

ويعتقد اليهود أن هذا الوعد أعطى لهم دون سواهم من البشر هذه الأرض، لكن المتمعن في هذا الوعد يلاحظ أنه أعطى لنسل إبراهيم بصورة عامة، وهذا الأخير أنجب العديد من الأبناء، فعلاوة على إسحاق نجد الابن البكر إسماعيل الذي أكد يهوه لإبراهيم على أنه معنى أيضا وبصورة مباشرة بهذا الوعد "فقال الله لإبراهيم لا يقبع في عينيك من أجل الغلام وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك"[48].

ويرى صابر طعيمة أن الوعد الذي قطعه الرب لإبراهيم، كما يرى "سفر التكوين" والمشار إليه في الإصحاح السابع عشر منه بإعطاء أرض كنعان ملكا أبديا، كان قبل ولادة "إسحاق" وهذا ما يعرف بعهد الختان[49].

وتؤكد "أبكار السقاف" في كتابها "إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة" أن مؤلف

سفر التكوين لم يكتف بإعطاء منطقة محددة من الأرض لنسل أو إنما حاول في مرحلة أخرى أن يحول الوعد لإبراهيم نفسه"[50].

وهذا ما جعله يقول "قال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه، أرفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا لأن جمع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد واجعل نسلك كتراب الأرض ... قم أمش في الأرض طولها وعرضها لك أعطيها، فنقل إبرام قيامه وأتى وأقام عند بلوطيات ممرا التي في جرون، وبنى مذبح للرب"[51].

وإذا ما عدنا لعهد الختان فإن "سفر التكوين" يؤكد على أن هذا الوعد تم قبل ولادة إسحاق نفسه[52] "وهذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختتن منكم كل ذكر، فتختتنون في لحم غولتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم، وهكذا أختتن إبراهيم وإسماعيل وبقية الخدم والعبيد"[53].

ورغم هذا فقد عملت "التوراة" على أن تجعل العهد "لإسحاق" دون غيره من أبناء "إبراهيم" بقولها " سارة امرأتك تلد ابنا وتدعوا اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهدا أبويا لنسلك من بعده "[54].

وبغض النظر عن محاولة إبعاد لوط فإن هناك محاولة لحصر العهد لإسحاق ومحاولة استبعاد إسماعيل وبقية اخوته من أبيه، أقصد بذلك أبنائه من "قطورة" بل أن التوراة تستدرك فيما بعد وتؤكد على أن الأرض للعائدين من مصر، ومعنى هذا أنها تحصرها في أبناء يعقوب المعروف بإسرائيل وتستبعد أبناء عيسوا الابن البكر لإسحاق، وهذا ما يوضحه "إيريك شنيدر" عندما يؤكد على أن الهجرة نحو مصر اقتصرت على يعقوب وأبناءه بغية الالتحاق بيوسف الذي أصبح نائبا لفرعون مصر[55]، كما نجد "كلود موس" يذهب هو الآخر هذا المذهب عندما يؤكد على أن الهجرة لم تشمل العبرانيين جميعا وإنما شملت يعقوب وأبناءه فقط[56].

وهو ما يؤكده "الكتاب المقدس "نفسه دون قصد من مؤلفه" في الإصحاح التاسع عشر من"الخروج "في قوله " فصعد موسى إلى الله فناداه الرب من الجبل قائلا، كذا يقول بيت يعقوب وتخبر بني إسرائيل، أنتم رأيتم ما صنعت بالمصريين ... فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب، فإن كل الأرض وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة"[57].

وفي موقع آخر من "الخروج" ولكن وهذه المرة نجد وعدا آخر بإعطاء الأرض ولكن هذه المرة في إحدى الوصايا العشر" أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك"[58].

وهنا نستخلص أن الوعد اصبح مقصورا على أبناء يعقوب العائدين من مصر دون غيرهم، إلا أن المتمعن في هذه النصوص يجد أنها ليست مطلقة وإنما هي مرتبطة

بشيء ما، أقصد أن العهد يكون بين طرفين، وهنا الطرف الأول ممثل في الرب والثاني ممثل في بني يعقوب، لكن هذا الوعد مقرون بشروط محددة، نجدها صريحة في ما يعرف بالوصايا العشر والتي تلغي الوعد مباشرة في حالة عدم التزام بني إسرائيل بشروط، وإذا أردنا أن نحدد هذه الشروط فإننا نجد منها يما يلي:

- عبادة الإله يهوه دون غيره من الآلهة الأخرى.
- الامتثال للأوامر والنواهي التي أصدرها "يهوه" لبني إسرائيل .
- حفظ العهود التي قطعها بنو إسرائيل "ليهوه".
- "إكرام الوالدين".
- إقامة علاقة طيبة وحسن جوار بين أبناء إسرائيل أنفسهم.

لكن هل التزم بنو إسرائيل بهذه الشروط؟ أم لا؟ وإذا كان هؤلاء لم يلتزموا بهذه الشروط، فهل ألغى الرب الوعد، وبالتالي فإن الميثاق المعقود يصير باطلا و الواقع أننا إذا تتبعنا أسفار التوراة نجدها تؤكد أن مسألة عدم التزام بني إسرائيل بالشروط السابقة لا يحتاج إلى نقاش ولا ينكرها هؤلاء أيضا.

فإذا عدنا للشرط الأول نجد الإخلال به واضحا، حيث عبد الكثير من الإسرائيليين آلهة أخرى لعل أهمها: العجل الذهبي الذي صنعه هارون حسب رواية "سفر الخروج" مما جعل الغضب يشتد ويطلب من "موسى" أن يتجه فورا لاستقصاء الأمر " فقال الرب لموسى اذهب أنزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعا عن الطريق الذي أوصيتهم به، وصنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه الهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر... فالآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم..."[59].

ويصل غضب الرب إلى مداه على هؤلاء فيقرر معاقبتهم " فكلم الرب موسى وهارون قائلا حتى متى أغفر لهذه الجماعة الشريرة المتذمرة علي، فقد سمعت تذمر بني إسرائيل الذين يتذمرون علي ... في هذا القفر تسقط جثثكم ,جميع المحدودين منكم"[60].

لكن مؤلف "سفر العدد "يحاول أن يجد تبريرا لعدم إلغاء الوعد، ويحاول أن يجد حلا لهذا الإشكال، وهذا بمنع الخطاة من الاستمتاع بالأرض المقدسة "إن جميع الرجال الذين رأوا مجدي ... وجربوني إلى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولي لن يروا الأرض التي حلفت لآبائهم أو جميع الذين أهانوني لا يرونها"[61], ويؤكد على أن الذين سيدخلون الأرض يقتصر على "كالب بن يفنة ويوشع بن نون، وأما أطفالكم ... سأدخلهم فيعرفون الأرض التي احتقرتموها"[62] لكن ألا يحق لنا أن نتسأل هنا إذا ما كان هؤلاء قد اخطوا فحرموا من دخول الأرض، فلماذا يمنع موسى وهارون وبقية الذين لم يرتدوا عن عبادة ربهم من دخولها؟

وبصورة عامة فإننا لا نجد جوابا منطقيا لهذا المنع، ويبرر"إيريك شنيدر" عدم دخول الإسرائيليين إلى أرض فلسطين رغم الخروج من مصر والتوجه نحوها بكون هذا الشعب لم يكن مؤهلا لذلك بسبب عقلية العبودية المسيطرة عليه والتي تكونت له من أزمان طويلة، كما أن الأرض نفسها غير مؤهلة لحد هذا الزمان لاستقبال أناس أحرار، لأن هذه الأرض كانت تحت السلطة المصرية ويسكنها الكنعانيون[63].

ويبدو أن هذا التبرير يحتاج هو الآخر إلى من يبرره وبصورة عامة إذا ما كان الأمر كذلك فلماذا يخرج هؤلاء ويفرون من المصريين وبعد مخاطر كثيرة ليسكنوا أرض أخرى تحت نفس السلطة.

وبالتالي فإن هذا التبرير يدفعنا إلى أن نثير جملة من التساؤلات أهمها إذا كان يهوه يجهل استعداد الشعب العبري للحياة الحرة، لماذا أخرجه من مصر؟ والأمر كذلك إذا كانت الأرض ليست مؤهلة بسبب السيطرة المصرية عليها، فلماذا وعد بها الرب موسى، ثم ماذا لو لم يخطئ بنو إسرائيل هل كانوا سيدخلون الأرض، ثم ألم يدمر الجيش المصري ويغرق فرعون حسب رواية سفر الخروج نفسه، فلماذا الخوف من قوة ضعفت ومن سلطة سقطت ومن خطر زال.

هذا لا يعني أننا نشكك في عملية الخروج وإنما نشكك في التبريرات التي قدمت لبقاء إسرائيل في صحراء سيناء ,واقتصار الوعد علي العائدين أو بالأحرى الفارين من مصر دون غيرهم من أبناء إبراهيم.

وإذا عدنا للحديث عن الأرض فإننا نجد سفر "يوشع بن نون" يتحدث عن الدخول إلى أرض فلسطين واستقرار بني إسرائيل هناك بعد أن قسمت هذه الأرض بينهم عن طريق القرعة، وهذا ما يؤكده "إيريك شيندر" حيث يرى أن يوشع قام بتقسيم الأرض التي احتلها بين أسباط إسرائيل بالتساوي[64].

ويشير الكتاب المقدس إلى هذه المسألة بقوله "فهذه الأرض التي امتلكها بنو إسرائيل في أرض كنعان، نصيبهم بالقرعة كما أمر الرب عن يد موسى"[65]، وبطبيعة الحال فإن امتلاك هذه الأرض كان نتيجة للقوة والاغتصاب, وبعد عملية إبادة قام بها يوشع وأتباعه وهو ما نجده مفصلا في السفر الذي يحمل اسمه, والذي يأتي في الترتيب والأهمية بعد ما يطلق عليه اليهود بأسفار التوراة أو كتب موسى الخمسة[66].

ومما سبق نصل إلى أن الركن الثاني الذي تقوم عليه اليهودية كدين و دولة هو قداسة الأرض التي يعتقدون أنها أعطيت لهم، بل أن التلمود يقول أن من " يحيا خارجها لا إله له، والمؤمن فيها نبي"[67], ومعنى هذا أن اليهود بعد عملية الخروج من فلسطين ارتدوا عن دينهم وعبادة ربهم.

ويعتبر "عبد المنعم الحفني" أن اليهودية بهذا تخلط "بين الأرض والشعب وبين لتاريخ المقدس حتى ليبدو التاريخ وكأن الله قد حل فيه ... فصارت بداية التاريخ هو

العهد... ونهايته ظهور المسيح أو المهدي المنتظر وإقامة حكومته على الأرض"[68].

وهذه الأرض ستكون في النهاية مركز السلطة السياسية لكل سكان الأرض و"في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال, وغرس الله كل الأمم وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبيله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب فيقضي بين الأمم..."[69].

ويؤكد "هيريمان Herrman" على الترابط بين الأرض والشعب بقوله "تاريخ إسرائيل مرتبط عضويا بالأرض ذاتها أو بالأحرى الأرض التي حدث فيها هذا التاريخ، وهذا هو بالفعل ما حدث مع شعب إسرائيل في العهد القديم، بإمكاننا أن نرى بدايات إسرائيل الأولية في شمال سوريا والعراق القديمة من جهة وفي شمال مصر من جهة أخرى، قبل أن تجد إسرائيل وطنا في فلسطين ارض الميعاد"[70]، وأما الأسماء التي تطلق علي هذه الأرض فعديدة ولكنها لا تخرج عن القد اسه، فهي أرض إسرائيـل، أرض التوراة، إسرائيل يهوذا، كنعـان، شرق الأردن، فلسطيـن، السورية [71].

وأخيرا هناك إشارة لابد منها وهي أن العهد المقطوع لا يقتصر على بني إسرائيل بل أننا نجد سفر " التثنية " يؤكد على أنه لابد من المحافظة على المواليين لأن الرب كان قد أعطى لوطا أرضا ووعده هو الآخر "فقال الرب لا تعاد مواب ولا تشن عليهم حربا لأني لا أعطيك من أرضهم ميراثا لأني لبني لوط قد أعطيت ثمار ميراثا"[72] كما قد أعطي لبني عيسوا أرضا "لا تهجموا عليهم لاني لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأني لعيسوا قد أعطيت جبل سعير ميراثا"[73] إلى أن الواقع يؤكد على أن اليهود لم يلتزموا بذلك عند الدخول إلى فلسطين بل عملوا على إبادة كل هؤلاء دون مراعاة لوعود أو لمواثيق إلهية أو أرضية.

ثالثا: السيادة

وأما الأساس الثالث الذي تقوم عليه الدولة في الفقه السياسي فيتمثل في السلطة السيادية المنبثقة من"مصدر ساد، نقول ساد سيادة عظم وشرف وساد قومه صار سيدهم، ومنه سيادة الدولة وسيادة القانون"[74]، وهي عند جميل صليبا من حيث الاصطلاح يقصد بها"السلطة السياسية التي تستمد منها جميع السلطات الأخرى"[75].

ولعل الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" من أهم الفلاسفة الذين ناقشوا هذه الفكرة إذ نجده يعرفها في كتابه "في العقد الاجتماعي" بأنها "تلك التي لديها قوة إصدار الأوامر، والتوجيهات التي يتعين طاعتها من جانب كل الأفراد، وأن اختراقها أو انتهاك يعرض الفرد للعقوبة"[76] ويقابلها اللفظ الإنجليزي والذي يقصد به " السلطة التي

تراقب الحكومة[77]، كما تعرف أيضا بأنها سلطة مستقلة وسيدة"[78].

وبهذا تكون السيادة هي السلطة العليا التي لا توجد سلطة فوقها وتتميز بجملة من المميزات والخصائص يمكن حصرها فيما يلي:

- الإطـلاق

يرى فلاسفة السياسة أن الخاصية الأولى التي تتصف بها السيادة تتمثل في كون صاحب هذه السلطة يتمتع بسلطات مطلقة غير محددة[79]، بمعنى أنه لا توجد في الدولة قوة تعلو تلك القوة ذات السيادة، فلا مكـان لسلطة أخرى منافسة أو معارضـة[80]، وبهذا فالسيادة تتميز بكونها سلطة مطلقة تعلو كل سلطة غيرها.

- الشموليــة

تتصف السيادة بالعموم والشمولية، فهي تشمل جميع الأفراد والهيئات والمنظمات الداخلية في نطاق الدولة[81]، ولا يستطيع أي شخص أو هيئة داخل الدولة طلب عدم الخضوع لهذه السلطة.

- عدم إمكانية التنازل أو التحويل

هذه الخاصية تعني "أن صاحب السيادة لا يمكن أن يكون ممثلا إلا بنفسه، إن السلطة يمكن أن تنقل أما الإرادة فلا"[82] ,وهذا يعني أن السيادة لا يمكن أن تحول ولا أن يتنازل عنها، وإذا حدث التنازل زالت السيادة وزالت الدولة.

- الـدوام

معنى هذه الخاصية أن السيادة تكون دائمة، دوام صاحبها، وأما في الدولة فتكون دائمة دوام الدولة، أي أن هذه السلطة دائمة دوام الدولة ذاتها، فطالما تبقى الدولة، تبقى السيادة، فالاثنان لا ينفصلان [83], وبهذا فهي تلازم صاحبها ودائمة بدوامه.

- عدم قابليتها للتقسيم

يقصد بهذه الخاصية أن صاحب السيادة في الدولة الواحدة لا يمكن أن يشاركه في سلطته هذه مشارك، فالدستور الأمريكي مثلا يقرر أنه: "إذا تناقضت أحكام ودساتير الولايات أو القوانين الصادرة عن هيئاتها التشريعية معا للدستور الفدرالي، تكون هذه الدساتير باطلة ولاغية[84]", ولكن إذا حدث وأن انقسمت هذه السلطة وتوزعت فإن الصراع ينشأ بين هذه الأطراف التي توزعت عليها السيادة, مما يؤدي حتما إلى زوال الدولة واندثارها نتيجة للصراع الذي ينشأ نتيجة لتعارض الرغبات.

وعموما فإن الفكر السياسي يجعل من السيادة سلطة عليا متفردة في خصائصها وفي مفهومها.

وإذا ما حاولنا تتبع مصدر السلطة السيادية في المجتمع اليهودي بصورة عامة وفي نظامه السياسي بصورة خاصة، فإننا نجد أول إشارة إلى هذه المسألة مع عمل موسى

لإخراج إسرائيل من أرض مصر.

إذ أن المصريين القدماء عملوا على استعباد هذا الشعب الواحد لديهم، فأفقدوه بذلك حريته، وهكذا نجد الرب يتعاطى مع مذلة هؤلاء ويخبر موسى بأنه: "نزل لإنقاذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة "[85]، ويلاحظ المتتبع لهذه المسألة أن تحرر بني إسرائيل من المصريين لم يعد لهم حريتهم الكاملة وسلطتهم على أنفسهم, بل إننا نجد تنازلهم عن كافة سلطاتهم لمحررهم، ونقصد بذلك ليهوه، وهذا ما نستشفه من الوصايا العشر بصورة خاصة، حيث نجد القوانين الجديدة التي يجب أن يخضع لها الجمع بما فيهم موسى.

إذ على بني إسرائيل عبادة "يهوه" دون غيره من الآلهة، وتطبق أوامره ونوهيه المختلفة "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالا... "[86].

وهكذا نجد الرب يحدد الشريعة وطرق المعاملات بصورة عامة "وهذه الأحكام التي تصنع أمامكم إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حرا"[87]، بل أن تعين الكهنة جعلت منه التوراة مسألة لا علاقة للإنسان بها, بعد أن حسمت الأمر بحصر هذه الوظيفة في أبناء هارون دون غيرهم من الإسرائيليين في بداية تكوين المجتمع الإسرائيلي، كما ورد في سفر" العدد"في التالية: "هذه أسماء بن هارون الكهنة الممسوحين الذين ملأ أيديهم للكهانة"[87]، وبهذا يعد هذا الاختيار اختيارا إلهيا, كما نجد الوظائف الدينية لهؤلاء محددة بدقة كما جاء ذلك أيضا في مختلف أسفار لتوراة، خاصة الخروج العدد، التثنية، وللاوين.

كما نجد "التناخ" تؤكد بدقة على أن السلطة العليا في المملكة أو المجتمع اليهودي بصورة عامة يجب أن تكون للرب، بل أننا نجد عند محاولات البعض التقليل من هذه التأثيرات عرضتهم للصدام مع المؤسسة الدينية الكهنوتية، كما هو الحال بالنسبة لشاو ول الذي عرض نظام حكمه لعدم الاستقرار والاضطراب، إذ بعد أن عينته هذه المؤسسة حاول مخالفتها بمخالفة أمر الرب الذي أصدره عن طريق "صموئيل" بعفوه عن "أجاح" ملك عما ليق، احتفاظه بأبقار وخراف أعدائه[88], فتدخل يهوه وأمر بتعيين خليفة له كما يذكر لنا نص الإصحاح السادس من سفر صموئيل الأول "فقال الرب لصموئيل حتى متى تنوح على شاول وأنا قد رفضته عن أن يملك على إسرائيل إملاء قرنك دهنا وتعال ارسلك إلى يسي التلحمي لأني قد رأيته لي في بيته ملكا"[89].

وبصورة عامة فإن السلطة السيادية العليا في المجتمع اليهودي كانت ليهوه، الذي يمارسها عن طريق الكهنة أو الأنبياء، وهو بهذا يجعل من النظام السياسي والاجتماعي ذا صبغة دينية ثيوقراطية.

المصادر والمراجع

1. نقصد بالتوراة مجموعة أسفار العهد القديم.
2. محمد علي محمد، علي عبد المعطي محمد: السياسة، بين النظرية والتطبيق دار النهضة العربية بيروت ص 265 - 270.
3. يحي الجمل : النظريات السياسية المعاصرة, دار النهضة العربية بيروت ص27.
4. محمد علي محمد، علي عبد المعطي محمد : السياسة بين النظرية والتطبيق، دار النهضة العربية بيروت ص265.
5. جاك ماريتان : الفرد والدولة، ترجمة عبد الله أمين، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 43.
6. يطلق على اسم والد إبراهيم آزر في القرآن.
7. عرف فيما بعد إبراهيم بأبي الأمم .
8. Erik Seinadre: "La Lois de la pensée", Clartes, Paris 1976, p.1, 1630.
9. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول- المطبعة الكاثوليكية- بيروت، ص 13.
10. لإسحاق ولدان هما : عيسو الإبن البكر الذي هو أدوم، تزوج من ابنة اسماعيل على نسائه. ويعقوب الذي هو اسرائيل، أنظر سفر التكوين 1/27.
11. Claude Mousse *et al*., "L'histoire du monde. L'antique", Bordas, Paris, p.135.
12. Ibid, p 135.
13. WWW.aish.com / philosophy/ whose Abram $.asp.
14. إحسان حقي، مقدمة كتاب منوسمرتي, ص أ.
15. التكوين 21/10.
16. محمد عزة دروزة : مختارات قومية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1978، ص 233.
17. إنجيل بر نابا، ترجمة خليل سعادة، دار النشر، القاهرة، مصر ص.12.
18. Claude Mousse, "L'Histoire…", p.136.
19. Erik Seinadre, "La Loi…", p.2-1630.
20. التكوين : 5/47
21. التكوين : 11./47
22. التكوين : 34./46
23. التكوين 6./47
24. Claude Mousse, "L'Histoire…", p.136.
25. Erik Seinadre, "La Loi…", p.2-1630.
26. خروج 13/1، 14.
27. البقرة 49.
28. Claude Mousse, "L'Histoire…", p.136.
29-30. Erik Seinadre, "La Loi…", p.2-1630.
31. فراس السواح : أرام دمشق وإسرائيل في التـاريخ والتاريخ النوراني، دار علاء الدين، ط1، 1995، دمشق، ص 66 .
32. سجموند فرويد : موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط2، 1977، ص 33 .
33. محمد خليفة حسن أحمد : تاريخ الديانة اليهودية، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1998، ص97
34. خروج : 5/2, 6, 7, 8.
35. البقرة: 54.
36. خروج : 3/ 7, 10.
37. خروج : 22/14، 21، 23، 28، 30.

38. البقرة: 50.

39. Erik Seinadre, "La Loi…", p.3-16230.

40. عصمت سيف الدولة : عن العروبة والإسلام، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1986، ص 44.

41. محمد عبد المعز نصر : في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 23.

42. Erik Seinadre, "La Loi…", p.3-16230.

43. محمد علي محمد، علي عبد المعطي محمد : السياسة، ص 267.

44. عبد المنعم الحفني : موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، مكتبة مدبولي القاهرة ص 242.

45. صابر طعيمة : تاريخ اليهود العام، الجزء الأول، دار الجيل بيروت, ط3 ص 317 - 318.

46. تكوين : 6/12، 7، 8، 9.

47. تكوين : 15/18.

48. تكوين : 21/12.

49. صابر طعيمة : التاريخ اليهودي العام، ج1، ص 319.

50. أبكار السقاف : إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، مكتبة مد بولي، القاهرة، ط2، 1997.

51. تكوين : 13/14، 15، 16، 17، 18.

52. تكوين : 17/10، 11.

53. تكوين : 17/25، 26، 27.

54. تكوين : 17/19.

55. Erik Seinadre, "La Loi…", p.2-16230.

56. Claude Mouss, "L'Histoire…", p.135 .

57. خروج : 19/3، 4، 5، 6.

58. خروج : 20/12.

59. خروج : 32/7، 8، 10.

60. عدد : 14/26، 27، 29.

61. العدد : 14/21، 22، 23.

62. العدد : 14/30، 31.

63-64. Erik Seinadre, "La Loi…", p.3-16230.

65. يوشع : 14/1، 2.

66. أنظر"سفر يوشع بن نون" ففيه مزيد من التفاصيل حول هذه المسألة.

67. التلمود، نقلا عن عبدالمنعم الحفني: موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، ص 243.

68. عبد المنعم الحفني: موسوعة,ص.243

69. أنظر"سفر يوشع بن نون" ففيه مزيد من التفاصيل حول هذه المسألة.

70. أشعيا : 2/2، 3، 4.

71. نقلا عن كيت وينلام : إختلاف إسرائيل القديمة " إسكات التاريخ الفلسطيني " ترجمة سحر الهنيدي، سلسلة عالم المعرفة، سنة 1420 أيلول، 1999 عدد 249 . ص89- 90.

72. كيت ويثلام : ص 84 - 85 .

73. تثنية : 2/9.

74. تثنية : 2/5.

75. جميل صليبا : المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني بيروت ج1، ص 679.

76. المرجع نفسه، ص 679.

77. جان جاك روسو : في العقد الإجتماعي، ترجمة ذوقان قرقوط دار القلم بيروت, ص .70
78. Oxford american world power dictionary, O.U.P , 1998, p.642 .
79. Oxford advanced learners encyclopaedic dictionary, O.U.P, 1998, p.872 .
80. د.محمد عبد المعز نصر: في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1981، ص 416.
81. د. محمد علي محمد، د. علي عبد المعطي محمد : السياسة، ص .294
82. المرجع نفسه: ص .417
83. جان جاك رو سو: في العقد الاجتماعي ص 63.
84. محمد عبد المعز : في النظريات والنظم، ص 417 .
85. ريشا رد شرور در : موجز نظام الحكم الأمريكي، ترجمة وتوزيع وطبع وكالة الإعلام الأمريكية (ب، ت)، ص .15
86. خروج : 8/3 .
87. خروج : 20/ 2، 3، 3.
88. خروج : 1/21، 2.
89. العدد : 3./3
90. أنظر مثلا الخروج الإصحاح 37 واللاوين الإصحاح .1
91. أنظر صموئيل الأول : 3/15، 10. □